جواهر المعاني وبلوغ الأماني

في فيض سيدي أبي العباس التيجاني رضي الله عنه

للعلامة سيدي
علي حرازم بن العربي برّاد المغربي الفاسي
رحمه الله

ويليه : كتاب رماح حزب الرحيم
على نحور حزب الرحيم
لسيدي عمر بن سعيد الفوتي الطوري الكدوي
رحمه الله

الجزء الأول

دار الرشاد الحديثة
الدار البيضاء - المغرب

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - 2002 م

دار الرشاد الحديثة

ص.ب. B.P. 4040
98, boulevard Victor Hugo
☎ 274817 - 273256
CASABLANCA - MAROC

98 شارع فيكتور هيكو
☎ 274817 - 273256
الدار البيضاء - المغرب

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، سيّدنا ونبيّنا محمّد بن عبد الله، خاتم النبيين والمرسلين، الداعي إلى الحقّ، الهادي إلى الصراط المستقيم، ﷺ، صلاة عاطرة دائمة إلى يوم الدين، ورضي الله تبارك وتعالى عن صحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن التصوف ما يزال يمثل طريقة تدين لكثير من المسلمين اليوم ولا نكاد نجد بلداً أو مجتمعاً من مجتمعات المسلمين غير متأثر به. وإذا أردنا أن نقيم معتقدات وممارسات هذه المجتمعات ونبين جوانب الخطأ والصواب فيها، ونبين ما يمكن الاستفادة منه وما ينبغي إصلاحه، فإن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بمعرفة ودراسة معتقدات وممارسات تلك المجتمعات.

وإن الدار إذ أخذت على عاتقها نشر تراث الفكر الإسلامي العظيم بأحلى حلة وأحسن إخراج، على أمل مستقبل إسلامي واعد، يسرها أن تقدم للقراء الكرام كتاب (جواهر المعاني وبلوغ الأماني) للعلامة علي حرازم المغربي متمنية أن يلاقي لدى القرّاء الكرام كل استحسان وقبول.

ونسأل الله تعالى أن يتقبّل منا صالح أعمالنا، وأن يعفو عن سيّئاتنا وأن يثيب علماءنا الأتقياء. إنه سميع مجيب.

الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى في في سورة آل عمران:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾

[آل عمران: ١٩٠ ـ ١٩٤]

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أفاض على أوليائه وأحبائه وأصفيائه من النور الأحمدي أنواراً، وأصفاهم من مكنون سره وجوهر علمه ودره معارف وأسراراً، وحلاهم بحلية سنائه، وحلل جماله وبهائه، وأطلعهم في سماء التوحيد أقماراً فاستضاءت أنوارهم الخليقة، وسلكوا بهم من الدين طريقه، وتبوؤوا منه وطناً وقراراً، وصاروا للسالكين هداية وعلماً بالمحجة وآية، وبرزوا بكل لاحق مناراً، فلولاهم ما سلك من تلك السبل فجاجها، ولا قوم من ضلع النفوس اعوجاجها، ولا تبيّن لها الهدى استبصاراً، فسبحان من خصهم بالحكمة والنور، وشرح بهم القلوب والصدور، وجعلهم للدين أعواناً وأنصاراً، والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الذي من فيض بحره يغترفون، ومن روض مواهبه يقتطفون ويجتنون ثماراً وأزهاراً، ومن نوره يستمدون، وعنه يرثون ويستبدون، وعليه يحوم كلهم مراراً. فما من نعمة واصلة أو رحمة متراسلة إلّا على يديه أرسلت مدراراً، فهو باب الله العظيم، وصراطه المستقيم، وغيثه النافع إكثاراً، فلولا طلعته الكريمة، وإمداداته العميمة الفاتحة قلوباً وأبصاراً، ما استطعتم لذيذ الوصل ونعيمه، ولا عرف كأس الحب ونديمه، ولا استنشق صب من شميمه عراراً، صلىَّ الله عليه وسلّم، وعلى آله المكمل شرفهم بشرفه وكماله السامين مجداً وفخاراً، وعلى صحابته الأبرار المنتخبين الأخيار مهاجرين وأنصاراً.

وبعد:

فإن من أحسن ما يصرف إليه الإنسان اهتمامه ويصرف فيه لياليه وأيامه، ويعمل فيه فكره وأقلامه، ويجعل ذكره نديمه ومدامه، ويتخذه محراب وجهه وإمامه، ويقصد فيه سمته وأمامه، ويقتني ذخره الأسنى ويجتلي بكره الحسنى، ويقتبس من مشكاة نوره، ويستضيء بشموسه وبدوره، ويرتفع في خمائله ورياضه، ويكرع من موارده وحياضه، ويتضمخ منه بأزكى عرف وطيب، ويتذكر به المنزل والحبيب، محاسن أهل الله الأولياء، وخاصتهم الأصفياء، حزب الله وأهل حضرته الفائزين بشهوده ونظرته المجذوبين إليه، والمحبوبين لديه، الواقفين بين يديه، والعاكفين عليه، الساجدة لله على الدوام قلوبهم، والحافظة لعهده سرمداً شهادتهم، وغيوبهم مظاهر آيات المصطفى، ونوابه الخلفا الواردين من منهله الأروى، والشاربين منه زلالاً صفواً، المتخلقين بشيمه وخلاله، والمتبعين لأقواله وأفعاله، فإلى سماع ذكرهم ترتاح القلوب، وتشتاق به إلى علام الغيوب، وتنشط بذلك من عقالها لفعل الطاعات وأدائها، فإن كثيراً من الناس حملهم على ذلك حتى أثار منهم العزم والقوة والجد والتشمير، وبلغوا إلى أن حاسبوا أنفسهم على النقير والقطمير، ولم يرضوا منها إلّا باللحوق بمعالي الأمور والمسارعة إلى ما تحمد عاقبته بدار السرور، ونزهوا جوارحهم عن دنس المخالفات وارتكاب السيئات، وقاموا بوظائف الدين من فعل المأمورات واجتناب المنهيات، وجادوا في رضا محبوبهم بالأرواح والنفوس، وتلقوا ما جاء عنه على الأكف والرؤوس، فصارت أخبارهم وشمائلهم تتلى وتكتب في الطروس، فقد بلغنا عن بعضهم أنه قال: والله لأزاحمن أصحاب محمد ﷺ في أفعالهم، حتى يعلموا أنهم قد خلفوا وراءهم رجالاً، أو كما قال رضي الله عنه: فانظر رحمك الله إلى هذه الهمة العالية كيف لم ترض إلا بالرتب السنية، وما ذاك إلا حين سمعت بفعل الأوائل، اشتاقت وصحبها التنافس، فجدّت في طلب ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] اللهم ارزقنا همة عالية تبلغنا بها إلى كل أمر محمود، ونية صادقة تحجزنا بها عن كل ما يوجب الصدود، وقيل:

إن شئت إنّك تظفر ... فكن في حبك صادق
عن ساق عزمك شمر ... وانبذ جميع العلائق
سر الموالي ما يظهر ... إلّا على من هو عاشق

فهذه أيّها المحب فائدة وجودهم وظهورهم، وسماع أخبارهم على وجه الإيجاز والاختصار ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وبالجملة فنعم الله علينا لا تحصى، وما غاب عنا أكثر، فله الحمد حتى يرضى، فأنا لو تتبعنا ما للقوم، رضي الله عنهم، من الأقوال، وما منحوا به من محاسن الخلال لكن لا يسعنا الوقت لضيق الزمان، فلنقبض العنان عن التتبع لأقوال من يغترفون من بحر المواهب والامتنان، ويقتطفون أزهار اللطائف والمعارف من معدن الجود والإحسان، وكيف لا وهم القوم الذين اصطفاهم الحق لخدمته، ويجعلهم أهلاً لمناجاته وحضرته، وأشهدهم أنوار جماله وإحسانه، وأجلسهم على بساط كماله وامتنانه، وهم القوم الذين شربوا من محبته فطابوا، وتحيرت قلوبهم في عظمته فغابوا، فنالوا من مولاهم ما طلبوا، وساعدهم الوقت فيما رغبوا، فهم السادات والأمراء والسلاطين في زي الفقراء الذين صلحوا أن يكونوا قادة لخليقته، ممتثلين قائمين بخدمته على وفق حكمه ومشيئته، فلا تصفو الحياة إلا بهم، ولا تطمئن القلوب إلا بذكرهم، وحين هاجت القريحة بحبهم صاحت ونادت في حبهم على جهة الافتخار بقربهم فقالت:

فوالله ما طاب الزّمان بغيرهم ... فلولا هم ما كنت أرضى بعيشتي
فما العيش إلّا بينهم تحت ظلهم ... وهم راحتي أنسي وسؤلي وبغيتي
لقد سكنوا قلبي وما لي غيرهم ... عليهم من الرحمن أزكى تحية

فلتحمد أيها العاشق لجمالهم والمحب لطريقهم وكمالهم، وقر عيناً بهم وتعلّق بأذيالهم، ولا تلتفت إلى شيء يصدك عن جنابهم، ولتغتبط بما أرسمه لك في هذا المكتوب من شمائل وخصائص هذا الشيخ العظيم الذي لم يسمح الزّمن بمثله إلّا في القديم، ولله در القائل: حيث يقول:

محاسن أهل الله لا شك جمة ... وما قصبات السبق إلا لتجان
فبوأه الفردوس والخلد ربه ... وجنة عدن بين حور وولدان
وجنة مأواه ودار قراره ... ومقعد صدق في رياض وريحان

وقال غيره في هذا المعنى رحمه الله:

آليت وهو أنا المبرور في قسمي ... ما سمحت مثله أعصار أزمان
أنعم وحقق يقيناً غير متهم ... ما مثله ولدت في الدّهر نسوان

وإن ممن أكرمه الله بهذه الكرامة، وأحله بمكانتها وأقامه وأنزله منها أعلى مرتبة ومرقبة، وأولاه منها أعظم آية ومنقبة، وحاز في مربعها الخصيب أكبر حظ وأوفر نصيب، شيخنا وسيدنا وسندنا ووسيلتنا إلى ربنا الشيخ الواصل القدوة، الكامل الطود الشامخ العارف الراسخ، جبل السنة والدين وعلم المتقين والمهتدين العلامة الدراكة المشارك الفهامة، الجامع بين الشريعة والحقيقة، الفائض النور والبركات على سائر الخليقة، الواضح الآيات والأسرار، ومعدن الجود والأبحار، البحر الزاخر، الطام المعترف بخصوصيته الخاص والعام، نادرة الزمان مصباح الأوان، الشريف العفيف، ذو القدر المنيف، أبو العباس مولانا أحمد بن الولي الشهير، العالم الكبير الشيخ الإمام القدوة الهمام المدرس النفاع النبوي الاتباع، أبو عبد الله سيدي محمد المختار التجاني، رضي الله عنهما وإني لما منّ الله علي بمعرفته، والانحياش إلى حزبه وزمرته، ورأيت من شيمه وشمائله ومحاسنه وفضائله، وسمعت من كلامه ومعارفه وإشاراته ولطائفه ما عز وجوده وقل وروده، وعدم مثله وفقد شكله، مما هو جدير أن يفاد ويستفاد، ويقصد إليه ويراد، وتسطره في الطروس الأقلام، وتدونه في الدواوين الأعلام، حداني ذلك مع ما طلبه مني بعض الإخوان والأحباء الأعيان أن أتعرض لما تيسر لديّ وساقه الله إليّ من التعريف به وبطريقته وعرفانه وتحقيقه ونشأته وسيرته وخلقه وشيمته وكلامه، وإشارته ومكاشفته، وكرامته، وغير ذلك من مآثره وآيته، فجمعت في هذا التأليف ما استحضرته من ذلك مما هو بعض ما هنالك إسعافاً لمن طلب، وإتحافاً لذوي الرغب، وإعانة لذوي الاعتبار، وإبانة لذوي الاستبصار، وإفادة لأهل المحبة والوداد، وهداية لذوي الانتساب والاستناد، إذ التعلق بأهل الله واللياذ بجنابهم والانحياش إليهم والوقوف بأبوابهم تعلق بجناب الله الكريم في أيام دهركم نفحات، ألا فتعرضوا لها لعل أن تصيبكم نفحة منها فلا تشقون بعدها أبداً، فيا فوز الذين نهضوا إليهم وتعرضوا لها فاستمدوا من تلك النفحة مدداً، وإذا كان عند ذكرهم كما في الأثر الموقوف والخبر المعروف، تتنزل الرحمات، وتنم عواطف النسمات، فما بالك بنشر

محاسنهم ومفاخرهم وتعداد مناقبهم ومآثرهم، وذكر سيرهم النبوية وأخلاقهم المصطفوية التي هي هدى ونور وشفاء لما في الصدور، ودواء للقلوب وجلاء للكروب، وفتح للبصائر ونفع للسرائر، وهدى للسالك والسائر، يطرب المسامع حديثها ويحث الأشواق إلى حضرتهم حثيثها، وما ملئت الدواوين والدفاتر، ولا فاهت الأفواه والمحابر بعد شمائل رسول الله ﷺ، وسيره وشيمته الطاهرة وأثره أفضل من أخبارهم ومكارمهم ومآثرهم، إذ هم أصحابه الصحبة المعنوية ومعجزته الباقية السرمدية، ولله در القائل حيث يقول:

يا سادتي يا أفضل السادات ... لأزينن بذكركم أوقاتي
يا خير صحب محمد من بعده ... يا أفضل الأحياء والأموات

ونحن إن لم نكن من الأتباع، ولا من الأشياع حقيقة، والأتباع فحول نفحاتهم نحوم، ولشيء من بركاتهم نروم:

خذ ما دنا إن فاتك الأجلّ ... إن لم يصبها وابل فطل

وجدير لمن رد أخبارهم، واستمد آثارهم، وأكثر حديثهم، وأحب قديمهم وحديثهم، أن يدخل ديرهم، وينال برهم، أو يعلق منها بفائدة تكون منفعتها عليه عائدة، وفي معنى ذلك قيل:

حدث السمع بالمحاسن منهم ... فالحديث لنا نديم النفوس
فإذا ما سقيت منها بكأس ... زال عنك من العنا كل بوس

جعلنا الله ممن أحبهم، واتبع طريقهم وحزبهم، ورزقنا التلذذ بخبرهم واستحسان سيرهم وأثرهم. **واعلم** رحمك الله أني لا أستوفي ما لسيدنا وشيخنا ومولانا أحمد التجاني رضي الله عنه من المآثر والآيات، والمناقب والكرامات أبد الآبدين، ودهر الداهرين، لأني كلّما تذكرت فضيلة، وجدت فضيلة أخرى، وكلّما تدبرت آية، رأيت أكبر من أختها، إلى هلم جرا، لا سيما وهو رضي الله عنه باق في قيد الحياة لهذا العهد، شهر الله شعبان، سنة ثلاث عشرة ومائتان وألف، فكلّما يرد عليك ذكره في هذا التقييد، فإنّما هو بعض ما فات ممن سلف قبل هذا التاريخ، وخلف من خلف فدونك، فإنك ستقف إن شاء الله على شيء شريف وأمر منيف من كلمات عديدة وأخبار جديدة تكسبك نوراً، وتقذف في قلبك سروراً، فإن النبأ الجديد موقعه في الأسماع لذيذ، وها أنا أذكر لك إن شاء الله ما تقر به العيون، ويتسلى به كل محزون مما صح عندي وتقرر، وفيه مقنع لمن فهم وتدبر، لأن مآثر هذا الشيخ، رضي الله عنه، لا تحصى، ومناقبه لا تستقصى، فقد شاعت بها الأخبار، حيث سار الليل والنهار، وليس يوجد لها حد ولا مقدار، وإنّما نورد صبابة منها وشظية من عدها، فقد يكلّ عنها القرطاس والقلم، ويعيا في طلبها اليد والقدم، فهي في الناس أشهر من نار على علم، وقد صدق الشاعر في بيته حيث يقول:

فسل عنه أهل العلم والعقل والحجا ... ومن كان ذا علم وكل ذوي النسك

ولكن أذكر لك جملة تستحليها أذن السامع، وتذرف لها العيون بالمدامع، وينتفع بها إن شاء الله العاصي والطائع من كلام سمعته منه، أو كتبته من خطه، أو أخبار في سيره تلقيتها من أصحابه وملازميه ومشاهدتهم من ذلك وبعضها من خط غيره، ولم أكتب شيئاً من أحد حتى أتثبت فيه، وأتحرّى الصدق ممن يحكيه، ولكن الظن بهم جميل، إذ كل من نقلت عنه أو رويت موسوم بسمة الصلاح فيما رأيت، فإنّهم أهل سيادة وأهل ديانة، وأهل محبة وأهل صيانة، كل يقتدي بقوله، جعلنا الله وإياكم من المنخرطين في سلكه، ومن المحسوبين في حزبه، وممن عرف قدره، وقدر محبه، بجاه محمد وآله وصحبه، فإن من تشبث بأذيالهم بلغ المأمول، وكان فيما يرومه قريب الوصول، فابسط أيها المحب أيدي الضراعة عند ذكرهم، وقف متذللاً عند بابهم، وقل بلسان الافتقار إليهم: ارحم عبيدك الضعيف، وإن كان بها على الجور والتطفيف، فقد قال تعالى على لسان رسوله: «**أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُم مِنْ أَجْلِي**» فالتذلل والافتقار خير ما يقتني العبد في هذه الدار، **واعلم** رحمك الله، أني شرعت في ابتداء هذا الكتاب المبارك أوائل شعبان، سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف، بفاس حرسها الله بعين رعايته، وأرجو من الله أن يرزقنا خيره، إنه رحيم ودود، ولم أكتب منه حرفاً إلا بعد الاستخارة النبوية، واللجأ إلى الله والافتقار إليه من كل البرية، فنسأله سبحانه أن يلهمنا فيه إلى حسن الصواب، إنه كريم وهاب، وما مثلي من يتجاسر على جمع كلام أولياء الله تعالى وشمائلهم، ويتعرض لمسائلهم ومواهبهم، لكن لما رأيت خطأ أصحاب سيدنا رضي الله عنه، تقاصرت عن جمع

كلامه، واستولت عليهم الغفلة في التقاط علومه وأسراره، وصار الكدح والجد والسعي، إنّما هو مقصور على الفاني، وله كل شخص يعاني، أخذت في التقاط هذه الدرر في هذه الفترة وهذه السكرة، حين بذل كل واحد فيه جهده، وجعل في ذلك نيته وقصده، وعلمت أن كل كاسد لا بد أن يطلب، وعما قليل يبحث عليه ويرغب، وربما طلب في بعض الأحيان فلا يوجد لعزّته عند من يعرف قدره وقدر قيمته، فألزمت نفسي القعود إليه، وصرف الهمة لطلبه وجمعه، وكل يعطى على قدر طاقته ووسعه استرجاء لهذه الهمة الدنيئة المشوبة بالأفعال الردية على الله أن يثيبها بقول خير البرية حيث قال: «**وأُوجِبَ المَرْءُ مَع مَنْ أَحَب**» وقوله ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ قَوماً كَانَ مِنْهُم**» وما يقال: هم القوم لا يشقى بهم جليسهم، اللّهم كما مننت علينا أولاً بمعرفتهم فلا تحجبنا عن محبتهم ورؤيتهم، واحملنا على سننهم وطريقتهم، ولا تحل بيننا وبينهم حتى تحلنا محلهم، وتدخلنا مدخلهم يا رب العالمين، وأسألك اللهم أن تغفر لنا ما طغى به القلم، وزلت به القدم، فإنّك أنتَ الله ذو الجود والكرم، وأسألك أن لا تجعل ما نسطره حجة علينا، واجعله حجة لنا يا رب العالمين، ومن لنا بالكمال ونحن محل النقص والخطأ، قاصرين في السعي عن مد الخطا، لكن الظن بالسادات جميل، إذ هم محل الكرم الجزيل، وحاشا لمن تعلق بأذيالهم أن يهملوه، أو تحيز لجنابهم أن يتركوه، فإن طفيلي ساحتهم لا يرد، وعن بابهم لا يصد، ولله در قائلهم:

هم سادتي هم راحتي هم منيتي ... أهل الصفا حازوا المعالي الفاخرة
حاشا لمن قد حبهم أو زارهم ... أن يهملوه سادتي في الآخرة

وقال غيره:

ولي بصحبتكم فضل على الناس ... وكل من حبكم ما فيه من باس
أنتم مرادي وما في الكون غيركم ... لولاكم لم تطب نفسي وأنفاسي
لا تهملوني فإني عبد حضرتكم ... محلكم سادتي مني على الرأس

وأرغب لمن طالع مكتوبنا هذا أن يغض عنه عين الانتقاد، ويسمح لنا ما يلقاه من التصحيف والتحريف والزيادة والتطفيف، ويصفح عما وجد فيه من الخلل، ويقابل جهلنا بالصفح والإغضاء وحسن العمل، فإنا لسنا من أهل العلم ودرايته، ولا من أهل النحو وصناعته، وإنّما حملنا على ذلك شدة حبنا من أهل هذا الجناب وتعلقنا بهؤلاء الأحباب، ومن أقام لنفسه عذراً سقط عنه اللوم، وفيه يقول القائل:

إذا اعتذر الجاني محا العذر ذنبه ... وكل امرئ لا يقبل العذر مذنب

وقد آن لنا أن نذكر بعد هذا ما رمناه، ونوضح للسامع ما به وعدناه من ذكر فضائل هذا الشيخ رضي الله عنه وأخباره وأقواله وأفعاله وآثاره، وما لاح على القلوب والأرواح من أنواره وأسراره وأحزابه وأوراده وأذكاره، لتطمئن به القلوب والنفوس ويطلع من بعد ليل الوحشة نهار تذكرة البدور والشموس. **فأقول**: وبالله أستعين، فهو حسبي ونعم الحسيب ونعم المعين، مضمناً أبوابه وفصوله وتراجمه وأصوله في ستة أبواب ومقدمة وخاتمة، في العدد والله أسأل أن يمدنا منه بحسن المدد، فهو جلّ وعلا الواحد الفرد الصمد.

الباب الأول: في التعريف به وبمولده، وأبويه، ونسبه، وعشيرته الأقربين إليه، ونشأته وبدايته، ومجاهدته، وأخذ طريق رشده وهدايته، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الثاني: في مواجيده وأحواله، ومقامه المتصف به وكماله، وسيرته السنية، وجمل من أخلاقه السنية، وحسن معاملاته مع إخوانه وأهل مودته، وفيه ثلاث فصول.

الباب الثالث: في كرمه وسخائه، وعظيم فتوته ووفائه، وخوفه وعلو همته، وورعه وزهده، وموعظته، وحريته، ودلالته على الله وجمعه عليه، وسوقه الأقوام بحاله ومقاله إليه، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الرابع: في ترتيب أوراده وأذكاره، وذكر طريقته وأتباعه، وفضل ورده وما أعد الله لتاليه، وصفة المريد وحاله، وما يقطعه عن أستاذه، وكيفية الشيخ الذي يتبعه بسائر أقواله وأفعاله، وكيفية السماع وما يتبعه في سائر لياليه وأيامه، وأدعية شتى أجراها الله على لسانه كما هي عادته الكريمة على قلوب أهل عرفانه، وفيه ثلاثة فصول.

الباب الخامس: في ذكر أجوبته على الآيات القرآنية، وفي الأحاديث النبوية، وفي ذكر رسائله وكلامه

وإشاراته، وما سمعته من فيض علومه وتقريراته، وفيه فصول.

الباب السادس: في جملة من كراماته وبعض ما جرى من تصرفاته، وما اتفق لبعض أصحابه معه من مكاشفاته، أوردتها آخر الأبواب لتكون مسك ختامه، ويكمل فيها ما يستملح من الكلام على كراماته، ويظفر المحب بمرامه، ويشفي عليل لوعته وغرامه.

وسميته: **جواهر المعاني، وبلوغ الأماني، في فيض أبي العباس التجاني**، وإلى الله الاستناد وعليه الاعتماد، ومنه الفتح والإمداد، والتوفيق والإسعاد، فهو الكريم الجواد، وبه سبحانه القوة والإعانة، وعليه التعويل في الإتمام والتكميل، فلا قوة إلاّ به، ولا ركون إلا لعلي جنابه، فهو الولي والكفيل، وهو حسبي ونعم الوكيل. **فأقول**: وبالله التوفيق وهو الهادي إلى سواء الطريق:

مقدمة

قال الشيخ الشعراني رضي الله عنه في أوّل طبقاته ما نصه: مقدمة في بيان، أن طريق القوم مشيدة بالكتاب والسنة، وأنها مبنية على سلوك أخلاق الأنبياء والأصفياء، وبيان أنها لا تكون مذمومة إلّا إن خالفت صريح القرآن والسنة والإجماع لا غير، وأما إذا لم تخالف، فغاية الكلام أنه فهم أوتيه رجل مسلم، فمن شاء فليعمل به، ومن شاء تركه نظير الفهم في ذلك الأفعال، وما بقي باب للأذكار إلا سوء الظن بهم، وحملهم على الرياء وذلك لا يجوز شرعاً. ثم اعلم يا أخي رحمك الله أن علم التصوف عبارة عن علم انقدح من قلوب الأولياء حتى استنارت بالعمل بالكتاب والسنة، فكل من عمل به انقدح له من ذلك علوم وآداب وأسرار وحقائق تعجز الألسن عنها، نظير ما انقدح لعلماء الشريعة من الأحكام حتى عملوا بما علموا من أحكامها. فالتصوف إنما هو زبدة عمل العبد بأحكام الشريعة، إذا خلا من عمله العلل وحظوظ النفس، كما أن علم المعاني والبيان زبدة علم النحو، فمن جعل علم التصوف علماً مستقلاً صدق، ومن جعله من أحكام الشريعة صدق، كما أن من جعل علم المعاني والبيان علماً مستقلاً صدق، ومن جعله من جملة علم النحو صدق، لكن لا يشرف على ذوق أن علم التصوف تفرع من عين الشريعة إلّا من تبحر في علم الشريعة، حتى بلغ الغاية. ثم إن العبد إذا دخل طريق القوم وتبحر فيه، أعطاه الله هناك قوة الاستنباط نظير الأحكام الظاهرة على حد سواء، فيستنبط في الطريق واجبات ومندوبات وآداباً ومحرمات ومكروهات، وخلاف الأولى نظير ما فعله المجتهدون، وليس إيجاب مجتهد باجتهاده شيئاً لم تصرح الشريعة بوجوبه، أولى من إيجاب ولي الله تعالى حكماً في الطريق لم تصرح الشريعة بوجوبه، كما صرح بذلك اليافعي وغيره، إيضاح ذلك أنهم كلهم عدول في الشرع، اختارهم الله عزّ وجلّ لدينه، فمن دقق النظر علم أنه لا يخرج شيء من علوم أهل الله تعالى عن الشريعة، وكيف تخرج علومهم عن الشريعة؟ والشريعة هي وصلتهم إليه عزّ وجلّ في كل لحظة، ولكن أصل استغراب من لا إلمام له بأهل الطريق، أن علم التصوف من عين الشريعة، كونه لم يتبحر في علم الشريعة، ولذلك قال الجنيد رحمه الله تعالى: علمنا هذا مشيد بالكتاب والسنة ردّاً على من توهم خروجه عنهما في ذلك الزمان وغيره، وقد أجمع القوم على أنه لا يصلح للتصدر في طريق الله عزّ وجلّ إلّا من تبحر في الشريعة، وعلم منطوقها ومفهومها، وخاصها وعامها، وناسخها ومنسوخها، وتبحر في لغة العرب، حتّى عرف مجازاتها واستعاراتها، وغير ذلك. فكل صوفي فقيه ولا عكس، وبالجملة فما أنكر أحوال الصوفية إلّا من جهل حالهم، وكان القشيري يقول: لم يكن عصر في مدة الإسلام، وفيه شيخ من هذه الطائفة، إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء، قد استسلموا لذلك الشيخ، وتواضعوا له وتبركوا به، ولولا مزية وخصوصية للقوم لكان الأمر بالعكس اهـ.

قلت: ويكفينا مدحاً للقوم، إذعان الإمام الشافعي رحمه الله لشيبان الراعي حين طلب أحمد بن حنبل أن يسأله عمن نسي صلاة لا يدري أي صلاة هي، وإذعان الإمام أحمد بن حنبل كذلك حين قال شيبان: هذا رجل غفل عن الله فجزاؤه أن يؤدب، وكذلك يكفينا إذعان أحمد بن حنبل رحمه الله لأبي حمزة البغدادي الصوفي رحمه الله واعتقاده، حتى كان يرسل إليه دقائق المسائل، ويقول: ما تقول في هذا يا صوفي؟ في شيء يقف في فهمه الإمام أحمد، ويعرفه أبو حمزة غاية المنقبة للقوم، وكذلك يكفينا إذعان أبي العباس بن سريج للجنيد حين حضره، وقال: لا أدري ما يقول، ولكن لكلامه صولة ليست بصولة مبطل، وكذلك إذعان الإمام أبي عمران للشبلي حين امتحنه في مسائل من الحيض وأفاده، سبع مقالات لم تكن عند أبي عمران، وحكى الشيخ قطب الدين بن أيمن رحمه الله، أن الإمام أحمد كان يحث ولده على الاجتماع بصوفية زمانه، ويقول: إنهم بلغوا في الإخلاص مقاماً لم نبلغه، وقد أشبع القول في مدح القوم، وطريقهم الإمام القشيري في رسالته، والإمام أحمد بن أسعد اليافعي في روض الرياحين، وغيرهما من أهل الطريق، وكتبهم كلها طافحة بذلك، وقد كان الإمام أبو تراب النخشبي أحد رجال الطريق رحمه الله يقول: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله تعالى، وكان شيخنا الشيخ محمد المغربي

الشاذلي رحمه الله يقول: اطلب طريق سادتك من القوم، وإن قلوا، وإياك وطريق الجاهلين بطريقهم، وإن جلوا، وكفى شرفاً لعلم القوم قول موسى عليه السلام للخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦] وهذا أعظم دليل على وجوب طلب علم الحقيقة، كما يجب طلب علم الشريعة، وكل عن مقامه يتكلم اهـ.

قلت: وقد رأيت مراسلة أرسلها الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله عنه، إلى الشيخ فخر الدين الرازي صاحب التفسير، يبين له فيها نقص درجته في العلم هذا، والشيخ فخر الدين الرازي مذكور في العلماء الذين انتهت إليهم الرياسة في الاطلاع على العلوم من جملتها.

اعلم يا أخي! وفقنا الله وإياك، أن الرجل لا يكمل في مقام العلم حتى يكون علمه من الله عزّ وجلّ بلا واسطة من نقل أو شيخ، فإن من كان علمه مستفاداً من نقل أو شيخ فما برح عن الأخذ من المحدثات، وذلك معلول عند أهل الله عزّ وجلّ، ومن قطع عمره في معرفة المحدثات وتفصيلها، فاته حظه من ربه عزّ وجلّ، لأن العلوم المتعلقة بالمحدثات يفنى الرجل فيها ولا يبلغ إلى حقيقتها، ولو أنّك يا أخي سلكت على يد شيخ من أهل الله عزّ وجلّ، لأوصلك إلى حضرة شهود الحق تعالى، فتأخذ منه العلم بالأمور من طريق الإلهام الصحيح من غير تعب ولا نصب، ولا سهر كما أخذه الخضر عليه السلام، فلا علم إلا ما كان عن كشف وشهود، لا عن نظر وفكر وظن وتخمين، وكان الشيخ الكامل أبو يزيد البسطامي، رضي الله عنه، يقول لعلماء عصره: أخذتم علمكم عن علماء الرسوم ميتاً عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحي الذي لا يموت. وينبغي لك يا أخي أن لا تطلب من العلوم إلا ما تكمل به ذاتك، وينتقل معك حيث انتقلت، وليس ذلك إلّا العلم بالله تعالى من حيث الوهب والمشاهدة، فإن علمك بالطب مثلاً إنّما تحتاج إليه في عالم الأسقام والأمراض، فإذا انتقلت إلى عالم ما فيه سقيم ولا مريض فمن يتداوى بذلك العلم، فقد علمت يا أخي أنه لا ينبغي للعاقل أن يأخذ من العلوم إلا ما ينتقل معه إلى البرزخ دون ما يفارقه عند انتقاله إلى عالم الأخرى، وليس المنتقل معه إلّا علمان فقط: العلم بالله عزّ وجلّ، والعلم بمواطن الآخرة، حتى لا ينكر التجليات الواقعة فيها، ولا يقول للحق إذا تجلى له: نعوذ بالله منك، فينبغي لك يا أخي الكشف عن هذين العلمين في هذه الدار، لتجني ثمرات ذلك في تلك الدار، ولا تحمل من علوم هذا الدار إلا ما تمس الحاجة إليه في طريق سيرك إلى الله عزّ وجلّ، على مصطلح أهل الله تعالى، وليس طريق الكشف عن هذين العلمين، إلا بالخلوة، والرياضة والمجاهدة، والجذب الإلهي، وكنت أريد أن أذكر لك الخلوة وشروطها، وما يتجلى لك فيها على الترتيب شيئاً فشيئاً، لكن منعني من ذلك الوقت من لا غرض له في أسرار الشريعة ممن دأبهم الجدال، حتى أنكروا لما جهلوا، وقيدهم التعصب وحب الظهور والرياسة، وأكل الدنيا بالدين عن الإذعان لأهل الله، والتسليم لهم اهـ. وقد ذكر الشيخ محيي الدين في الفتوحات وغيرها: أن طريق الوصول إلى علوم القوم الإيمان والتقوى، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦] أي أطلعناهم على العلوم المتعلقات بالعلويات والسفليات، وأسرار الجبروت، وأنوار الملك والملكوت، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] والرزق نوعان: روحاني وجسماني، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] أي يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون بالوسائط من العلوم الإلهية، ولذلك أضاف التعليم إلى اسم الله الذي هو دليل على الذات، وجامع للأسماء والأفعال والصفات، ثم قال رضي الله عنه: فعليك يا أخي بالتصديق والتسليم لهذه الطائفة، ولا تتوهم فيما يفسرون به الكتاب والسنة، أن ذلك إحالة للظاهر عن ظاهره، ولكن لظاهر الآية أو الحديث مفهوم بحسب الناس وتفاوتهم في الفهم، فمن المفهوم ما جلبت له الآية أو الحديث، ودلت عليه في عرف اللسان، وثم إفهام آخر باطنه تفهم عند الآية أو الحديث، لمن فتح الله عليه، إذ قد ورد في الحديث النبوي: «**إن لِكُلِّ آيَةٍ ظَاهِراً وبَاطِناً وَحَدا ومَطْلَعاً إلى سَبْعَةِ أَبْطُنٍ وإلَى سَبْعِينَ**» فالظاهر هو المعقول والمنقول من العلوم النافعة التي بها الأعمال الصالحة، والباطن هو المعارف الإلهية، والمطلع هو معنى يتحد فيه الظاهر والباطن، والحد يكون طريقاً إلى الشهود الكلي الذاتي، فافهم يا أخي، ولا يصدنك عن تلقي هذه المعاني الغريبة عن فهوم العموم من هذه الطائفة الشريفة قول ذي جدل ومعارضة، أن هذا حالة لكلام الله تعالى، وكلام رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإنه ليس ذلك بإحالة لو قالوا: لا معنى للآية الشريفة أو الحديث، إلّا هذا الذي قلنا، وهم لم يقولوا ذلك،

يقرون الظواهر على ظواهرها، مراد بها موضوعاتها، ويفهمون عن الله تعالى في نفوسهم ما يفهمهم بفضله ويفتحه على قلوبهم برحمته ومنته، ومعنى الفتح في كلام هؤلاء القوم حيث أطلقوه: كشف حجاب النفس أو القلب أو الروح أو السر لما جاء به رسول الله ﷺ من الكتاب العزيز والأحاديث الشريفة، إذ الولي لا يأتي قط بشرع جديد، وإنّما يأتي بالفهم الجديد في الكتاب والسنة الذي لم يكن يعرف لأحد قبله، ولذلك يستغربه كل الاستغراب من لا إيمان له بأهل الطريق ويقول: هذا لم يقله أحد على وجه الذم وكان الأولى أخذه منه على وجه الاعتقاد واستفادته من قائله، ومن كان شأنه الإنكار، لا ينتفع بأحد من أولياء عصره، وكفى بذلك خسراناً مبيناً وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه: ولقد ابتلى الله تعالى هذه الطائفة الشريفة بالخلق، خصوصاً بأهل الجدال، فقل أن تجد منهم أحد، شرح الله صدره للتصديق بولي معين، بل يقول لك: نعم نعلم أن لله تعالى أولياء وأصفياء موجودين، ولكن أين هم، فلا نذكر له أحداً إلا ويأخذ يدفعه، ويرد خصوصية الله تعالى عنه، ويطلق اللسان بالاحتجاج، على كونه غير ولي لله تعالى، وغاب عنه أن الولي لا يعرف صفاته إلّا الأولياء، فمن أين لغير الولي أن ينفي الولاية عن إنسان ما ذاك إلا محض تعصب كما نرى في زماننا هذا، من إنكار ابن تيمية علينا وعلى إخواننا من العارفين، فاحذر يا أخي ممن كان هذا وصفه، وفر من مجالسته فرارك من السبع الضاري، جعلنا الله وإياك من المصدقين لأوليائه، المؤمنين بكرامتهم بمنه وكرمه اهـ.

وقال أيضاً: وقد جرت سنة الله تعالى في أنبيائه وأصفيائه، أن يسلط عليهم الخلق في مبدأ أمرهم وفي حال نهايتهم، كلّما مالت قلوبهم لغير الله تعالى، ثم تكون الدولة والنصرة لهم آخر الأمر، إذا أقبلوا على الله تعالى كل الإقبال اهـ.

قلت: وذلك لأن المريد السالك يتعذر عليه الخلوص إلى حضرة الله تعالى، مع ميله إلى الخلق وركونه إلى اعتقادهم فيه، فإذا آذاه الناس ونقصوه ورموه بالزور والبهتان، نفرت نفسه منهم ولم يصر عنده ركون إليهم البتة، وهنالك يصفو له الوقت مع ربه، ويصح له الإقبال عليه لذهاب التفاته إلى وراء، فافهم ثم إذا رجعوا بعد انتهاء سيرهم إلى إرشاد الخلق، يرجعون وعليهم خلعة الحلم والعفو والستر، فتحملوا أذى الخلق، ورضوا عن الله تعالى في جميع ما يصدر عن عباده في حقهم، فرفع بذلك قدرهم بين عباده، وكمل بذلك أنوارهم وحقق بذلك ميراثهم للرسل في تحمل ما يرد عليهم من أذى الخلق، وظهر بذلك تفاوت مراتبهم، فإن الرجل يبتلى على حسب دينه، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا﴾ [السجدة: ٢٤] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا﴾ [الأنعام: ٣٤] وذلك لأن الكمل لا يخلو أحدهم عن هذين الشهودين، إما أن يشهد الحق تعالى بقلبه، فهو مع الحق لا التفات له إلى عباده، وإما أن يشهد الخلق، فيجدهم عبيد الله تعالى، فيكرمهم لسيدهم، وإن كان مصطلماً، فلا كلام لنا معه لزوال تكليفه حال اصطلامه، فعلم أنه لا بد لمن اقتفى آثار الأنبياء من الأولياء والعلماء أن يؤذوا، كما أوذوا، ويقال فيهم البهتان والزور كما قيل فيهم، ليصبروا كما صبروا، ويتخلقوا بالرحمة على الخلق رضي الله عنهم أجمعين، وكان سيدي علي الخواص رحمه الله يقول: لو أن كمل الدعاة إلى الله تعالى كان موقوفاً على إطباق الخلق عليهم على تصديقهم، لكان الأولى بذلك رسول الله ﷺ والأنبياء قبله، وقد صدقهم قوم، وهداهم الله بفضله، وحرم آخرون فأشقاهم الله تعالى بعدله، ولما كان الأولياء والعلماء على أقدام الرسل عليهم الصلاة والسلام في مقام التأسي بهم، انقسم الناس فريقين: فريق معتقد مصدق، وفريق منتقد مكذب، كما وقع للرسل عليهم الصلاة والسلام، ليحقق الله بذلك ميراثهم فلا يصدقهم، ويعتقد صحة علومهم وأسرارهم، إلّا من أراد الله عزّ وجلّ أن يلحقه بهم، ولو بعد حين، وأما المكذب لهم، والمنكر عليهم، فهو مطرود عن حضرتهم، لا يزيده الله تعالى بذلك إلا بعداً، وإنّما كان المعترف للأولياء، والعلماء بتخصيص الله لهم وعنايته بهم واصطفائه لهم قليلاً في الناس لغلبة الجهل بطريقهم، واستيلاء الغفلة وكراهة غالب الناس أن يكون لأحد عليهم شرف بمنزلة أو اختصاص حسداً من عند أنفسهم، وقد نطق الكتاب العزيز بذلك في حق قوم نوح عليه الصلاة والسلام، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الرعد: ١] وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] وغير ذلك من الآيات. وكان محيي الدين رضي الله عنه يقول: أصل منازعة الناس في المعارف الإلهية والإشارات الربانية، كونها خارجة عن طور العقل ومجيئها من غير نقل ونظر، ومن غير طريق العقل فتكون خافية على الناس من حيث طريقها، فأنكروها وجهلوها،

ومن أنكر طريقاً من الطرق عادى أهلها ضرورة لاعتقاده فسادها وفساد عقائد أهلها، وغاب عنه أن الإنكار من الجحود، والعاقل يجب عليه أن يغير منكر إنكاره، ليخرج عن طور الجحود، فإن الأولياء والعلماء العاملين قد جلسوا مع الله عزّ وجلّ على حقيقة التصديق والتسليم والإخلاص والوفاء بالعهود، وهي مراقبة الأنفاس مع الله عزّ وجلّ، حتى سلموا قيادهم إليه وألقوا نفوسهم سلماً بين يديه، وتركوا الانتصار لنفوسهم، في وقت هو المحارب عنهم لمن حاربهم، والغالب لمن غالبهم، وكان سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله تعالى عنه يقول: ولما علم الله عزّ وجلّ ما سيقال في هذه الطائفة على حسب ما سبق به القلم القديم، بدأ سبحانه وتعالى بنفسه، فقضى على قوم أعرض عنهم بالشقاء، فنسبوا إليه زوجة وولداً وفقراً، وجعلوه مغلول اليدين، فإذا ضاق ذرع الولي والصديق لأجل كلام قيل فيه من كفر وزندقة وسحر وجنون وغير ذلك، نادته هواتف الحق في سره الذي قيل فيك، هو وصفك الأصلي، لولا فضلي عليك أما ترى إخوانك من بني آدم كيف وقعوا في جنابي ونسبوا إليّ ما لا ينبغي لي، فإن لم ينشرح لما قيل فيه بل انقبض، نادته هواتف الحق أيضاً أما لك بي أسوة فقد قيل فيَّ ما لا يليق بجلالي، وقيل في حبيبي محمد وفي إخوانه من الأنبياء والرسل ما لا يليق برتبتهم من السحر والجنون، وأنهم لا يريدون بدعائهم إلا الرياسة والتفضيل عليهم، وانظر يا أخي مداواة الحق جل وعلا لمحمد ﷺ، حين ضاق صدره من قول الكفار من قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] فيجب عليك أيها الولي الاقتداء برسول الله ﷺ في ذلك، إذ هو طب إلهي ودواء رباني، وهو مزيل لضيق الصدر الحاصل من أقوال الأغيار وأهل الإنكار والاغترار، وذلك لأن التسبيح هو تنزيه الله تعالى عما لا يليق بكماله بالثناء عليه تعالى بالأمور السلبية، ونفي النقائض عن الجناب الإلهي كالتشبيه والتحديد، وأما التحميد فهو الثناء على الله بما يليق بكماله، وهما مزيلان لمرض ضيق الصدر الحاصل من قول المنكرين والمستهزئين، وأما السجود فهو كناية عن طهارة العبد من طلب العلو والرفعة، لأن الساجد قد فنى عن صفة العلو حال سجوده. ولذلك شرع للعبد أن يقول في سجوده: سبحان ربي الأعلى وبحمده. وأما العبودية المشار إليها بقوله: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ﴾ [الحجر: ٩٩] فالمراد بها إظهار النية والتباعد عن طلب العز، وهي إشارة إلى فناء العبد ذاتاً وصفة، وذلك موجب لخلع القرب والاصطفاء، والعز والدنو المشار إليه بقوله: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩] وكان الجنيد رحمه الله تعالى يقول كثيراً للشبلي: لا تفش سر الله بين المحجوبين، وكان يقول: لا ينبغي لفقير قراءة كتب التوحيد الخاص إلا بين المصدقين لأهل الطريق والمسلمين لهم، وألّا يخاف حصول المقت لمن كذبهم، وكان يقول أبو تراب النخشبي رضي الله عنه في حق المحجوبين من أهل الإنكار: إذا ألف القلب الإعراض عن الله صحبته الوقيعة في أولياء الله.

قلت: ومن هنا أخفى الكاملون من أهل الطريق الكلام في مقامات التوحيد الخاص شفقة على عامة المسلمين، ورفقاً بالمجادل من المحجوبين، وأدباً مع أصحاب ذلك الكلام من أكابر العارفين، فكان الجنيد رحمه الله لا يتكلم قط في علم التوحيد إلاّ في قعر بيته بعد أن يغلق أبواب داره، ويأخذ مفاتيحها تحت وركه، ويقول: أتحبون أن يكذب الناس أولياء الله تعالى وخاصته، ويرمونهم بالزندقة والكفر اهـ. ومن الأولياء من سد باب الكلام في دقائق كلام القوم حتى مات، وأحال ذلك على السلوك وقال: من سلك طريقهم اطلع على ما اطلعوا عليه، وذاق كما ذاقوا، واستغنى عن سماع كلام الناس، وقد طلب أصحاب أبي عبد الله القرشي منه أن يسمعهم شيئاً من علم الحقائق، فقال لهم: كم أصحابي اليوم؟ فقالوا ستمائة رجل، فقال الشيخ: اختاروا منهم مائة فاختاروا فقال: اختاروا من المائة عشرين، فاختاروا، فقال: اختاروا من العشرين أربعة فاختاروا، وكان هؤلاء الأربعة أصحاب كشوفات ومعارف، فقال الشيخ: لو تكلمت عليكم في علم الحقائق والأسرار لكان أول من يفتي بقتلي هؤلاء الأربعة اهـ. باختصار من الطبقات للشعراني رضي الله عنه، وإنما أتيت بهذه المقدمة هنا لما فيها من حصول الفائدة، ومنفعتها على مطالعيها عائدة، نسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً بمنه وفضله، لما فيه رضاه ورضا نبيه، إنه جواد كريم، وبعباده رؤوف رحيم.

ولنختم هذه المقدمة بقاعدة في علم الحقائق، فإنّها نافعة جداً لكل من تمسك بعلوم الحقائق فأقول وبالله التوفيق والهادي بمنه إلى سواء الطريق:

اعلم أيها الأخ أنه لا بد لكل فن من فنون العلم من قواعد، يضبط بها، فيفزع في مشكلات أحكام كل فن وشوارده وغرائبه ونوادره إلى قواعده، فكما للفقه قواعد، وللإعراب قواعد، تبنى عليها أحكامها، ويرجع إليها في ضبط قوانينه،

فقوانين كل منهما كذلك لأهل الكشف والتحقيق، وعلم الأذواق ضوابط، وقواعد ينبني عليها صحيح أمرهم، ويعرف بها فاسده من صحيحه، ويرجع إليها عند ورود المشكلات والشوارد والنوادر، ولضبط أحكامه ومقاصده، وها أنا أوطىء لك صدر هذا الكتاب قاعدة جامعة لأصول التحقيق، دافعة عن مراجعها كل إشكال وتوهم وخيال فاسد، وتكون لما يأتي أساساً ومهاداً وأصلاً في معرفة قواعد هذا الفن في هذا الكتاب وغيره، وعماداً فأقول وبالله أستعين:

قاعدة: اعلم أن القاعدة عند أئمة علماء الكشف والتحقيق أن معقولية النسب لا تتبدل، وأن الحقائق لا تنقلب، فإذا كان النعت والوصف ذاتياً فلا ينقلب إلى غير ذلك، وأن الواجب لذاته لا ينقلب جائزاً، والجائز لا ينقلب واجباً، والمستحيل لا جائزاً ولا واجباً، ولما كان العدم للممكنات ذاتياً لم ينقلب إلى غير ذلك الوصف الذي هو العدم، فالعدم لها ذاتي، والوجود عرض لها في حيطة الجواز يجوز طروه على الممكن وعدم طروه، وكذلك البطون لما كان لذات الحق ذاتياً لم ينقلب إلى غير ذلك، وإلى البطون الذاتي لذات الحق تعالى وتقدس الإشارة بقوله تعالى في الحديث القدسي: «كُنتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً وَتَسَمَيْتَهُ» تعالى بالاسم الباطن فمقتضى حقيقة هذه النسبة التي هي البطون والجفاء والغيب المطلق الذاتي، أن لا يقع فيها تجل أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، إذ لتجلي عبارة عن ظهور الحق سبحانه وتعالى بأي تجل، وغاية علم العلماء بالله أن يعلموا ما ظهر للعلم وأدركه، وما ظهر للعلم وأدركه في أي وجه من وجوه الإدراك، فخارج عن حقيقة مقتضى نسبة البطون، وإن غاية ما يتعلق به العلم ويدركه حصول العلم بوجود الباري جل وعلا، فيحصل للعالم العلم بأنه موجود وواجب وجوده، وأنه ليس كمثله شيء، لا الإدراك بذاته، كيف وعلم الحادث حادث، فغاية علم العبد أن يعلم أن الباري جل وعلا موجود وواجب وجوده، ووجوده له ذاتي، وإنه ليس كمثله شيء، وإنه لا يعلم ما هو إلا هو، ولا يعلم قدره غيره، لقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١] وأيضاً فالعالم بالله إنّما أدرك علمه بواسطة العلم، وعلمه قائم به، فما أدرك إذا إلا العلم، ولا يلزم من إدراك العلم إدراك المعلوم، كيف وكلّما دخل تحت الحصر، فهو مبتدع مخلوق، ومن الشائع المشهور المجمع عليه عند المحققين قاطبة أن الصفات والنعوت تابعة للموصوف المنعوت بها، وإن إضافة كل صفة إلى موصوفها إنما تكون بحسب الموصوف، وبحسب قبول ذاته إضافة تلك الصفة إليها، ولما كان الحق سبحانه وتعالى يتعالى عن أن يدرك كنه حقيقته، كان إضافة ما تصح نسبته إليه من النعوت والصفات لا تكون على نحو نسبتها إلى غيره، لأن ما سواه ممكن، وكل ممكن فمنسحب عليه حكم الإمكان ولوازمه كالافتقار والقيد والنقص، وهو سبحانه وتعالى من حيث حقيقته مغاير لكل الممكنات، وليس كمثله شيء، فإضافة النعوت والصفات إلى الممكن بحسبه، وعلى الوجه الذي يستحقه ويليق به كالعلم مثلاً، إن وصف به القديم كان قديماً، وإن وصف به الحادث كان حادثاً، ونحو ذلك من الصفات والنعوت المشتركة، فإذا عرفت حكم هذه القاعدة النفيسة التي هي قطب رحا علوم أهل الله، والعلماء به المحققين الراسخين في العلم، وتحققت معناها فاعلم أن من تمام القاعدة أن تعلم أن الله سبحانه وتعالى جعل لكل شيء ظاهراً وباطناً، فلنفس الإنسان ظاهر وباطن، لأنها من جملة الأشياء، فقد يدرك الإنسان ما يدرك من مدركاته بظاهر نفسه المعبر عنها بالخيال والمثال والحواس، ولا يدرك بباطنها شيئاً، وقد يدرك ما يدرك من مدركاته بباطن نفسه، فيباشر العلم باطن النفس، وذلك العلم المباشر لباطن النفس يختص بعلم المعارف الحقانية، وسر المعرفة وسر التوحيد، فإذا فهمت هذا، وعلمت أن الحق سبحانه وتعالى هو الظاهر والباطن، وأن البطون له ذاتي، كما عرفت ذلك من صدر القاعدة، فاعلم أن الإنسان لا يدرك بباطن نفسه وظاهرها شيئاً إلا مما هو من أحكام تجليات اسمه الظاهر، فإذا تجلى الحق سبحانه وتعالى باسمه الظاهر لظاهر نفس من تجلى له، أدرك علماً ظاهراً من العلوم الظاهرة، وفتح عليه بذلك العلم الذي هو بصدده، ولم يزهد في شيء من الموجودات، فحصل ما حصل من العلوم، وحب خير الدنيا والآخرة لانجلاء ظاهر النفس بما وصل إلى ظاهرها من التجلي، ولم يزهد في شيء لعدم وصول التجلي إلى باطن نفسه وامتلائه به.

وإن تجلى سبحانه وتعالى باسمه الباطن لباطن نفس من تجلى له، حصل الإدراك بعين البصيرة، فيكون إدراك صاحب هذا المقام بعين البصيرة، لا بالفكرة والنظر، فيدرك بعين بصيرته عالم الحقائق وعالم المعاني، فلا يبقى عنده فيما يدركه بعين بصيرته إشكال ولا احتمال، ويستريح من تعب الفكر، فيفتح عليه عند وصول هذا التجلي إلى باطنه بالعلوم الإلهية، وعلوم الأسرار، وعلوم الباطن، وما يتعلق بالآخرة، ومعرفة أحدية الوجود، ونفيه عما سوى

الحق، ويظهر له سر التوحيد وسر المعرفة، ويزهد في جميع ما سوى الحق سبحانه وتعالى، ويضيق عن كل غير، ولم يبق فيه لسوى الحق متسع لامتلاء باطن نفسه بما وصل إليه من التجلّي فينكشف لعين بصيرته حقائق الأشياء، فيدرك بعين بصيرته رتبة الحق من رتبة غيره، فلم يبق لغير الحق في قلبه قدر لما أدرك بعين بصيرته ما أدرك من حقيقة رتبته، فمن تمام فائدة القاعدة التنبيه على ضابط في معرفة الرتب، وذلك بأن تعلم أن القاعدة عند أئمة علماء التحقيق: أن كل موجود له ذات ومرتبة، ولمرتبته أحكام، يظهر في وجوده المتعين لحقيقته الثابتة، فسمى آثار تلك الأحكام في ذات صاحبها أحوالاً، والمرتبة عبارة عن حقيقة كل شيء لا من حيث تجردها، بل من حيث معقولية نسبتها الجامعة بينها وبين الوجود المظهر لها والحقائق التابعة لها، لأن بعض الحقائق تابع للبعض، والتابعة أحوال للمتبوعة وصفات ولوازم، وذلك لأن الموجودات ليست بأمر زائد على حقائق مختلفة، ظهرت بوجود واحد تعين وتعدد في مراتبها وبحسبها، لا إنه إذا اعتبر مجرداً عن الاقتران بهذه الحقائق يتعدد في نفسه، وللحق تعالى ذات ومرتبة، ومرتبته عبارة عن معقولية نسبة كونه إلهاً، وهذه النسبة من حيث هي مسماة بالألوهية، وللحق من حيث هي آثار في المألوهين، وصفات لازمة تسمى أحكام الألوهية، وذاته سبحانه وتعالى من حيث تجردها عن جميع الاعتبارات المقيدة، وعدم تعلقها بشيء، وتعلق شيء بها لعدم المناسبة، لا كلام فيها من حيث معقولية نسبة تعلقها بالخلق، وتعلقهم بها، وبحسب أحوالهم من كونهم مجاليه ومظاهره، تنضاف إليها أحوال كالرضاء والغضب والإجابة والفرح وغير ذلك، يعبر عنها بالشؤون، وينضاف إليها من حيث آثار مرتبتها التي هي الألوهية في كل مؤثر فيه صفات تسمى أحكام المرتبة كالقبض والبسط والإحياء والإماتة والقهر، فلم يصح استناد العالم إلى الحق من حيث ذاته بل من حيث معقولية نسبة كونه إلهاً، وتعلق كون الحق إلهاً اعتبار زائد على ذاته، وتعقل العالم بالحق إنّما يصح بهذه النسبة، لأن مرجع سائر الأسماء والمراتب والنسب إلى هذه النسبة، ولأنها أصل كل حكم واسم ووصف ونعت وغير ذلك، مما يسند إلى الحق سبحانه وتعالى، ويضاف إليه وللإنسان ذات ومرتبة، فذات الإنسان حقيقته التي هي عينه الثابتة في حضرة علم ربه، والتي هي عبارة عن نسبة معلوميته للحق، وتميزه في علم ربه أزلاً على حسب مقتضى رتبته عند ربه، وكون ربه علمه ممكناً، وعلم ما قد قضى به له وحكم به عليه، وأحوال هذه الحقيقة الإنسانية هي ما يتلقب فيه الإنسان، وينضاف إليه، ويوصف به من التصورات والنشآت والتطورات وغير ذلك من الأمور التي ظهرت على وجوده المستفاد من الحق لما تقرر من كون العدم للممكن ذاتياً، وإن الوجود له عرض طارئ، يفتقر إلى مخصص إن خصصه بطرو الوجود وجد، وإن خصصه بالعدم وسلب الوجود عنه عدم، ومرتبته أي ومرتبة الإنسان عبارة عن عبوديته ومألوهيته، وأحكام هذه المرتبة هي الأمور والصفات المنضافة إليه من كونه عبداً ممكناً ومألوهاً، ومن كونه أيضاً مرآة ومجلى، فهذه قاعدة نفيسة عظيمة القدر جديرة بأن تكون عمدة، يرجع إليها في فتيا علم أهل التحقيق لو كان لذلك فتيا وميزاناً يعرف به قانون الحق في كل رتبة حقية أو خلقية، وأن يعترف المحققون بعلو درجتها لنفاستها وكثرة فوائدها، وما احتوت عليه من القواعد والضوابط العظيمة النفع في حل المشكلات المعضلات والالتباسات إذا راجعها الطالب لذلك، وبالله التوفيق، وبه الإعانة إلى سواء الطريق.